في عالم السجون

٢

اجتماع المسجونين

يقول لمبروزو في كتابه المسمى — الجريمة ، السبب والدواء (١) — « السجون من اهم عوامل الاجرام لانها تعتقد انها تحمي المجتمع وتنتقم له بحبس المجرمين مع انها على العكس من ذلك تمهد لهم طرق الارتباط بعضهم ببعض وان يتبادلوا المعلومات عن الشرور بل ان يجدوا مسرات حقيقية فيها . وكان احد سجناء بالرمو ينشد قائلا اني اقطع اربا كل من يجدف على السجون فهي السماء التي تمنيتها حيث نتعلم طرق الاخفاء والسرقة »

ولم يكن يقصد لمبروزو غير السجون التي قامت على فكرة الحجز القديمة دون النظر الى احوال المجرم والعمل على اصلاحه .

وذلك عيب من عيوب السجون في مصر . فان المسجونين يجتمعون من جميع الطبقات وبدون تمييز بين ميولهم واستعدادهم في مكان واحد ويستمرون على ذلك طول مدة وجودهم في السجون . وكما يلاحظ في الجماعات الراقية والبيئات المستنيرة ان الفكرة الخيرة هي العامل المسيطر على الجميع فكذلك في السجون نرى أن الفكرة الشريرة هي المسيطرة على المسجونين واكثر المسجونين ظهوراً وارجحهم مكانة بين زملائهم هم اكثرهم بطشا . والانسان عادة يتأثر بالقوة ايا كان شكلها ويتشبه بها بدون ان يشعر ولذلك نرى المسجونين المبتدئين الذين لم يكونوا مجرمين بطبيعتهم يتحولون شيئاً فشيئاً ولما كان الانسان ميالا بطبيعته الى كل ما يعلي مكانته في نظر المحيطين به من طريق الشر فقد يصل احد هؤلاء بعد قضاء مدة كافية في السجن الى درجة كبيرة من التدهور النفسي من طريق التقليد قبل كل شيء .

زج اليه فانها تتدرج بسرعة وبدون ان يحسها الاثيم قسير من الغضب الى حب الانتقام الى الاعتداء الفعلي بشكل جنوني فتري السجين الموتور يأتي خصمه بأي شيء يقع تحت يده كما يفعل السكير عادة . فالمسألة ليست طبيعة مجرمة بالفطرة تتجلى عليها مظاهر العنف في كل حلقة حتى في الاعيبها بل هي نفس صافية ضعيفة تتحرك فيها المؤثرات والنوبات ولا يمكنها أن تسيطر على ما يحيط بها من الظروف كما يفعل الرجل الاخلاقي . وذلك ما يجعلنا نعتقد أن الاصلاح الشامل المترامي الاطراف يخرج كثيراً من نزلاء السجون المصرية الآن من دائرة الاجرام .

اصابة اجسامهم بايديهم وما فيها من مظاهر التوحش فمنشأها اليأس والحقد اللذان شرحناهما شرحاً مفصلاً في المقال السابق .

التدين في السجون

كان سلفيو بليكو الكاتب الايطالي المشهور قبل أن يزج في السجن لتهمة سياسية في اوائل القرن الماضي شاكاً متردداً في [illegible] ولكنه اصبح متديناً بعد دخوله السجن وشرح ذلك في كتابه المسمى « سجوني » فقال : « كنت اتهرب من نداء مشاعري الذي كان يناجيني مدة صبا اهوائي قائلاً فلتكن عاقلاً . كن [illegible] لا تجدف عليها باعتداء انك ! دع عنك تحبس ما يصعب من تعاليم الكنيسة مادام الجوهر بيننا يقول : احب الله والناس . ولكني بعد دخولي السجن اعتزمت أن اعتنق هذا المبدأ فاعتنقته » .

ذلك ما شعر به احد كبار المفكرين عقب دخوله السجن والحق ان ذلك أمر شائع في السجون فالاستسلام والتمسك بعقيدة يرى المسجون أن فيها خلاصاً وسبيلاً الى سعادة ولو كانت مستقبلة نزعة تنتاب كثيرين من المجرمين بعد دخولهم السجن . ومن المفيد للاصلاح أن تستثمر هذه النزعة .

الواعظ

وفي السجون المصرية يحضر كل مدة من الزمن شيخ واعظ يجمع فريقاً من المسجونين [illegible] عليهم مقالاً من النوع المعروف الذي يتلوه الامام عادة بعد صلاة المغرب في كل [illegible] ولو أن لهذا الكلام اثراً كبيراً فعالاً لظهرت آثاره خارج السجون فيمن لم تتشبع نفوسهم بروح الاجرام .

ضعف سلطانه بين البنات خارج السجون فانه لا يمحى الا بين فئة من المجرمين تحجرت قلوبهم واعتادوا على ذلك من زمن طويل .

وقد يرجع السبب في عدم وحشية الاعيب المسجونين في مصر الى طبيعة المصريين المسالمة ولكني ارجح من جهة اخرى ان السبب في ذلك هو ان العدد الكبير من المسجونين الموجودين في مصر ليس الا كثيرون منه مجرمين بالفطرة ولم يتوصل [illegible] كرارا الى ما توصل اليه من النتائج الا لمصادفته في الحالة محاولة من المجرمين بالفطرة . فالاغلبية العظمى في مصر منشاها في الغالب عدم تربية النشء تربية صحيحة والعود على [illegible] والدليل على ذلك ان ظاهرة التوحش بين المجرمين بالفطرة ظاهرة طبيعية لكن مظهر الوقاحة في الكلام المعيب والاعمال المعيبة كذلك التي لا يرجع منشاها الى اصل طبيعي تدل في السجون المصرية على ان كثيراً من المجرمين هنا دفعوا الى الاجرام بالتقليد والمثل السيء وعدم وجود وسائل صالحة في مصر لتربية النشء وسنتكلم عن التربية والتعليم في مصر وعلاقتهما بالاجرام حين الكلام على صفات المسجونين فيما بعد .

وما دامت سلوة المسجونين الوحيدة محصورة في الكلام فاني اعتقد انه لو دخلت الفئة الصالحة منهم والتي تعرف القراءة والكتابة بعض من الكتب المفيدة الموثوقة لادخل عنصرا جديداً في احاديث السجون خصوصاً واني لاحظت ان كثيراً من المسجونين محب للاستطلاع واذا وجد حديثاً حلالا انصت اليه وظهرت عليه علامات التأثر الحقيقية بما فيه من معلومات ومبادئ .

سبب مظاهر التوحش في السجون

ويجب ان نفرق هنا بين التوحش الذي يبدو من المسجونين احيانا في مشاجراتهم بعضهم مع بعض والاهانات التي يوجهونها في اجسامهم [illegible] من تكاليف السجون في مصر كما بينا في المقال السابق وبين التوحش الذي نحكم به [illegible] كرارا وجعله ظاهرة من ظواهر المجرمين .

فالتوحش الذي يبدو في مشاجرات المسجونين في مصر ناشئاً عن عدم التهذيب الذي يجعل النفس تحتكم الى قواعد وقوانين [illegible] من [illegible] و [illegible] و [illegible] واذا لاحظنا انه اختلف مع زميله فلا يلبث ان يدفعه الغضب الى الرغبة في الانتقام . فاذا كانت جميع هذه الرغبات عند المسجون المصري لا تعرف مرجعاً في النفس ولا [illegible] تهذيبا؟

مجرم ارستقراطي

هذا هو وصف الرجل الذي اقترف عدة جرائم في البلاد الاميركية حتى ضج منه الناس وفشل رجال الشرطة مراراً في القاء القبض عليه ثم توفقوا الى ذلك بخيانة امرأة دلتهم على مخبأه فزجوه في اعماق السجون مصفداً بالاغلال غير أن ذلك الرجل الشرير ابت عليه نفسه الا أن يوقع الاذية بمن نم عليه فاوعز الى عصابته بان تنتقم له من عائلة تلك الامرأة وأن لا تحجم عن قتل افرادها حتى يتلذذ بوقع كلمات الفتك في مسمعه وتستريح نفسه التي تعودت الجرائم والفت سفك الدماء . وهذا الرجل الغريب الاطوار يلقب بالكونت نظراً لحسن بزته وجمال طلعته . وقد نفذت عصابته ارادة ربها فقتلت عائلة السيدة المذكورة على قارعة الطريق وفي اهم شارع من شوارع عاصمة «العم سام» . وكان المجرمون راكبين سيارة نزل منها اثنان انقضا على الامرأة وزوجها ثم ركباها على مرأى من الجمهور قاصدين الفرار غير أن عجل الكاوتشوك قضى بتوقفهم وقد القي القبض على جيرلاد شابمن فاعترف بجرائمه وسرد تاريخ حياته منذ الصغر بدون خوف ولا وجل فتبين منه انه ولد من ابوين وضيعين في مدينة كامبروبل وجيء به الى اميركا طفلاً ولما شب انعكف على الجرائم وادعى انه ابن لاحد الوزراء ثم ادعى انه من عائلة انكليزية كريمة . وقد ابتدأ اعماله الفظيعة منذ ثمانية عشر سنة وعرف باسماء مستعارة كثيرة واول مرة قبض عليه وشوهد في دائرة الشرطة كانت سنة ١٩٠٧ عندما كان لا يزال في التاسعة عشر من العمر فارسل الى مدرسة الاصلاح لمدة اثني عشر شهراً وسجن سنة ١٩٠٩ بتهمة اللصوصية . في سنة ١٩١٤ حكم عليه بالسجن عشر سنوات فادخل الى سجن (سن سن) وهنالك تعرف بالمجرم اندرسون الذي قتل السيدة وزوجها وهو رجل طاعن بالسن يدير جرائمه بخبرة واسعة لانه متخرج من احدى الكليات العليا وله المام بعدة لغات فضلاً عن اتقانه فن التصوير الزيتي بقصد تقليد البنكنوت ولما تقابلا وتعارفا استحكمت بينهما عرى الصداقة وتواعدا على ان يتلاقيا عند خروجهما من السجن وهكذا كان .

اما شابمن فقد رأس عصابة كبيرة اشتغل امرها بعد ان استشارت باراء اندرسون واكبر عمل قامت به بعد خروجهما من السجن سرقة اوراق مالية تبلغ الاربعمائة الف جنيه

ونحن نرى باي روح يستمع الناس لخطبة الواعظ في يوم الجمعة فهل يكون لهذه التلاوة الفاترة والقول المألوف اثر بين خصوم المجتمع وفي نفوسهم الثائرة التي كثيراً ما استعملت لباس الدين خارج السجون للاحتيال « والنصب »!! بل على العكس من ذلك فان كثيرين من المجرمين ما كان يحلو لهم الهزل والمداعبة الا في هذه الحلقات . ولم الاحظ تأثرا من اقوال الواعظ الا على اوجه اربعة في المائة على الاكثر ولا ادري أن كان ذلك تأثراً حقيقياً ام تظاهراً ووسيلة للاحتيال على منفعة او مصلحة داخل السجن ؟

وليست هذه هي الطريقة التي تستثمر بها هذه النزعة ولكن استثمارها يكون بخلق جو في السجون يساعد على نموها وانتشارها في السجن وتوجيهها الى الوجهة المطلوبة . فإذا شيدت معابد صغيرة في السجون وجعل للمسجونين وقت يمضونه فيها كل يوم لكان لهدوء المكان وروعته وعلاقته بعقائد المسجون الوراثية اثره بمناجاة عملية لايجد السجين فيها ما يضحكه — كما هي الحال في حلقات الواعظ — ويصرفه عن مغزاها . وإذا وجد وعاظ في السجون فيجب أن لا يكونوا من هذا النوع المرتل بل من النوع المنطقي الذي يعرف الدين في الطبيعة وفي النفس وفي العقل لا من الكتب فقط كما هي العادة بين هؤلاء الوعاظ .

وليس في السجون المصرية الآن شيء من ذلك وكل ما فيها من آثار الدين مصحف يوضع في كل دور به من المسجونين حوالى المائتين واغلب هذه المصاحف ممزق لا يصلح للقراءة . (يتبع)

— عن الاهرام —

حسني عبده الشنشاوي
حقوقي

***